الفصل السابع

حياة اللغة

عظمت العناية فى العصر الحديث بدراسة (حياة اللغة) ، وصراعها مع غيرها ، وانشعابها الى لهجات فى القديم والحديث ، واعتبر البحث فى ذلك من أهم فروع علم اللغة . وخاصة فى اللهجات واسباب تفرقها وتعوتها على غيرها ويطلق علماء الغرب على هذا الفرع (الدياليكتولوجى Dialectology)

فاللغة تشبه شجرة تتدلى فروعها الى أسفل ، فتلامس التربة ، وترسل فى الأرض جذورا تصبح أشجارا فتية فيما بعد .

وقد تموت الشجرة الأم ، ولكن من فروعها تنشأ أشجار جديدة .

واحيانا نقيم حول اللغة سياجا من أحكام شديدة ، وقوانين ثابتة ، وقد نقيم حولها هالة من التقديس ... فنطيل بذلك فى عمر اللغة وحياتها الى حين ولكن لابد من التغيير الجزئى والكلى فيها ، حتى تمسى مغايرة لما كانت عليه من قبل ، وذلك ناموس تخضع له اللغات .

وقد أشار علماؤنا العرب الى اللهجات العربية اشارات عابرة ، ولم يعنوا العناية الكافية الا بلهجة قريش ، باعتبارها اللهجة السائدة والمتفوقة على غيرها من اللهجات ، والتى نزل بها القرآن الكريم ، وأصبحت لغة الدين والعبادة ، وشئون الحياة .

وذكر علماء النحو بعض اللهجات التى خالفت السنن العربى العام فى النطق والحديث ، ونسبوها أحيانا الى أصحابها ، واغفلوا ذلك أحيانا أخرى .

وحبذا لو اتجهت العناية اليوم الى بحث اللهجات العربية على أسس منهجية ، حتى تفيد الدراسات اللغوية العربية بتأصيل وتأثيل روافدها .

وسنذكر فى هذا الفصل شيئا عن :

ـ حياة وصراع اللغات ، وما يعتورها فى مسيرها دفعا وتعويقا وتأثرا وتأثيرا .

ـ وكيف يكون انتشار اللغة واتساع رقعتها مدعاة لتفرقها الى لهجات . تتقارب أو تتباعد ، وتفوق بعض اللهجات على بعضها حتى تصبح لغة ، كالقرشية ، والانجليزية ، ثم لا تلبث أن تعود الى الانشعاب فى لهجات من جديد (١) .

* * *

(١) لمزيد من البحث والفائدة فى هذا الصدد ، راجع :
ـ علم اللغة ، د . وافى ، ص ١٦٩ ـ ٢٤٨ ، واللهجات د . انيس ص ١٦ ـ ٢٥ ، واللهجات العربية د . نجا ، ص ٦ ـ ١٧ .

صراع اللغـــات :

يقال : ان اللغة كائن حى ، ومعنى هذا أنه :

يعترى اللغات ما يعترى الأحياء ، من : غنى ، وفقر ، ومن سعة وضيق ومن انتشار وانحسار ، ومن تجمع وتفرق ، ومن دعة واضطراب ، ومن عزة وذلة ، ومن حياة وموت .

فقد يتاح للغة ما أن تنتشر ، وتتسع رقعتها ، ويكثر عـــدد الناطقين بها ، مثل اللاتينية والعربية فى العصور القديمة والوسطى ، ومثل اللغات الحية فى العصر الحديث .

وقد تنحصر اللغة فى رقعة ضيقة ، وتظل حبيسة هذه الرقعة الضيقة ، حتى يقدر لها أن تنطلق غازية منتشرة مسيطرة ، تنداح دائرتها ويتســع مداها .

أو على العكس من ذلك تقبع فى رقعتها المحدودة ، حتى تتلاشى وتصبح نسيا منسيا ، كاللغة (البسكية) التى كانت محصورة بين فرنسا واسبانيا ، ثم طمسها ما جاورها من لغات .

واللغة التى تتلاشى ، لاتملك فى طياتها عناصر الحياة والبقاء والنمـــو غالبا . وهى حينئذ لاتموت حتف انفها ، وانما تصرعها لغة اخرى ، لهـــا من عوامل البقاء والتنمية ، ما يمكنها من أن تغزوهـــا فى عقر دارهـــا ، وتنتصر عليها .

واسباب اتساع لغة ما ـــ اذن ـــ وانتشارها ، هو :

١ ـــ اما الغلبة فى الصراع ، والانتصار فى الحرب ، والمقهور مولع بتقليد الغالب ، وخاصة اذا كان للمنتصر حضـــارة وثقافة ورقى ، وليس للمنهزم شىء من ذلك :

فقد كانت اللاتينية قديما احدى لغـــات الفرع الايطالى من مجموعة (الهندو اوربية) ، محصورة فى منطقة ضيقة من ايطاليا . واصبحت بعد انتصارها فى الصراع لغة رسمية لكل من : ايطاليا ، والبرتغال ، واسبانيا ، والجول (فرنسا) ، والالب ، والبانيا .

وكانت اللغة العربية محصورة فى شبه الجزيرة العربية ، وحين اعزها

الله بالاسلام ، وحملته رحمة للعـالمين ، تغلبت على كثير من اخواتهـا الساميات ، وانتصرت على اللغة الكوشية ، والقبطية ، والبربرية ، وبعض مناطق الفارسية ، واصبحت لغة الملايين ، بعد ان كانت لغة لبضعة آلاف .

وكم اتسعت رقعة الناطقين بالانجليزية اليوم فى اماكن بعيدة وشاسعة ، كما هى فى : امريكا الشمالية ، وكندا ونيوزيلندا ، وجنوب افريقيـا ، واستراليا ... ويتكلم بها اكثر من ٣٠٠ مليون .

وكذلك البرتغالية التى نشرها الاستعمار فى جزر المحيط الهنـدى ، والبرازيل ومناطق من افريقيا ، حتى اصبح المتكلمون بها اكثر من مائة مليون .

٢ ــ وكذلك الهجرة القومية والمكثفة ، او الاستعمار الثقيل بقضه وقضيضه ، سبب رئيسى من اسباب انتشار اللغة ، وانبساط رقعتها ، وخاصة اذا كان المهاجرون او الغزاة اصحاب حضارة وثقافة ومنعة ، وكانوا كذلك كثرة كاثرة :

فحين اغار النورمانديون من الفرنسيين على انجلترا ، فى منتصف القرن التاسع الميلادى ، لم تقهر لغتهم الانجليزية ، لأن عدد المغيرين لم يكن كثيرا .

ولكن حين نزح الانجليز السكسونيين ، من اواسط اوروبا ، الى انجلترا ، وكان عددهم كثيرا ، تغلبت لغتهم الانجليزية على (السلتية) لغة سـكان البلاد الأصليين ، مع ملاحظة ان المغيرين والمغار عليهم لم يكونوا اصحاب حضارة ، ولكن رجح النصر كثرة المغيرين . وملاحظة أن اللغتين المتصارعتان كانتا ايضا من مجموعة اللغات الآرية .

وتغلبت العربية حين حملت رسالة الاسلام وحضـارته فى فتوحاتها على كثير من الساميات ، وعلى القبطية فى مصر ، والبربرية فى شـمال المغرب العربى ، والفارسية فى بعض بلاد فارس ... واضحت لغة الدولة والدنيا والدين ، مع ان العرب كانوا قلة فى بلادهم ، وفى الفتوحات الاسلامية بالنسبة لأهل البلاد التى دخلت الاسلام ، الا ان الحضارة والثقافة الاسلامية رجحت الكفة للعربية .

على أن احتكاك العربية باللغات المغزوة والمجاورة جعلها تؤثر وتتأثر حسب قانون التجاور والصراع :

فتأثرت بالآرامية فى الفاظ الحضارة والصناعة والتفكير الفلسفى . كما تأثرت باليونانية فى مفردات مثل (اسطوانة ، ناموس ، اسفنج ، انجيل ، اسقف ...) وتأثرت بالفارسية فى الأدب : فى الأخيلة والتشبيه والتراكيب .

كما اثرت العربية كثيرا فى التركية .

غير ان أثر العربية فى الفارسية كان اكثر ، اذ ان معظم المفرداته الفارسية الحديثة — عربى الأصل ، وكذا فى اللغات الأردية ، والأفغانية ، والكردية والبخارية .. لأن هذه الأجناس استقبلتها بحفاوة وقداسة .

وكان تأثرها بالسريانية أوضح من تأثرها بالقبطية فى مصر والبربرية فى شمال افريقيا ، اذ لم تتأثر بهما العربية الا قليلا .. ومثلهما اللغة القوطية فى اسبانيا ، حين احتكت بها العربية ، فصرعتها فى زمن قصير .

وكما ذكرنا أن اللاتينية لغة الرومان ، سادت على لغات ايطاليا وفرنسا واسبانيا .. حين غزتهم ، لأن اللاتينية كانت لغة حضارة وثقافة .

وتمطر اللغة الغالبة المغلوبة بسيل من الألفاظ ، فتوهن الكلمات متنها ، ثم تضمحل وتتلاشى بعد حين فى كل مظاهرها .

٣ — واحيانا تتعايش اللغتان معا ، ولا تستطيع احداهما التغلب على الأخرى ، ويرجع ذلك الى عراقة كليهما فى الثقافة والحضارة ، أو لقلة افراد المهاجرين أو الفاتحين .

فاللاتينية — مثلا — لم تتغلب على الاغريقية ، لعراقة الأخيرة فى الحضارة .

والتركية (لغة الامبراطورية العثمانية) فى ابان عظمتها وسطوتها ، لم تستطع التغلب على اى لغة فى البلاد التى خضعت للأمبراطورية ، اذ ليس للتركية حضارة سابقة ، فضلا عن أنهم لم يمتزجوا بأصحاب البلاد التى حكموها زمنا ليس بالقصير .

والانجليزية لم تقهر الهندية ، مع طول استعمار الانجليز للهند ، لأن الهند عريقة فى الحضارة ، ولعدم امتزاج المستعمر بأهل البلاد .

مع ملاحظة : ان تعايش اللغتين يجعلهما يتأثران ببعضهما ويقترضان الألفاظ ، وتسبغ كل لغة على ما اقترضته من الأخرى من حيويتها ما يميز

شخصيتها وذلك كما حدث بين الفارسية والعربية ، وتلك سنة اللغات حين الاحتكاك والتجاوز .

كذلك تتأثر اللغات بالاحتكاك فى الحروب ، أو التجارة ، أو المجـاورة : فالانجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والبرتغالية ـ مثلا ـ تتقارض المفردات وتأثرت كلها أيضا ببعضها بسبب الحروب التى قامت فى أوروبا .

والحروب الصليبية نقلت الى اللغات الأوروبية ، كثيرا من الألفاظ .وذكر بعض العلماء أن الأسبانية أخذت من العربية أكثر من أربعمائة لفظة فى شئون البحرية وحدها .

فضلا عن ان المعاملات التجارية ، قد اثرت كثيرا ، ونقلت أسماء الأشياء التجارية المتبادلة ، وما يلزمها

والعلاقات الثقافية لها أثرها الكبير فى التأثير والاقتراض ، كالفارسية واليونانية والأوربيات ، وأثرها فى العربية قديما وحديثا . وكلها تأثيرات سلمية .

***

اللغة واللهجـات :

اللهجة : عبارة عن قيود صوتية تلحظ عند الأداء . أو هى مجموعةصفات لغوية ، تنتمى الى بيئة لغوية خاصة .

وعلماء العرب الأقدمون لم يفرقوا فى الاستعمال بين : اللغة ، واللهجة ، واللحن . وانما استعملوا الكل بمعنى واحد : فقالوا : لغة طىء ، ولغة تميم ، ولغة أزدشنوءة ... ويريدون اللهجة .

وقال أعرابى فى صدد السؤال عن مسألة نحوية : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى .

وقد استعمل القرآن الكريم (اللسان) بمعنى اللغة كثيرا .

وتتميز اللهجة بصفات يمكن حصرها فى الأصوات ، وكيفية نطقها . ومتى كثرت الصفات الخاصة بعدت اللهجة عن أخواتها .

ويمكن أن تتجاور عدة لهجات فى البيئة اللغوية الواحدة ، ومتى تميزت وتحددت لصفات معينة أمكن تعتها باللهجة ، ويتم ذلك بعد مضى مدة ليست بالقصيرة .

وتفرع اللغة الى لهجات نتيجة لازمة لسعتها وانتشارها ، اذ لايمكن أن تحتفظ بوحدتها طويلا ، ومن ثم تنشعب الى لهجات ، وتكثر الصفات المميزة للهجة حتى تبعد اللهجة — أو اللهجات عن اللغة ، وقد تصبح لغة ولغات :

فاللاتينية — مثلا — كانت احدى لغات الفرع الايطالى ، من مجموعة اللغات الآرية ، وفى العصور الوسطى انشعبت اللاتينية الى لهجات ، ثم بمرور الوقت أصبحت لغات ، هى : الفرنسية ، والايطالية ، والأسبانية ، والبرتغالية ... ، بينما انزوت اللاتينية نفسها ، حينما اكتملت تلك اللهجات واستقلت . بل وأصبح لهذه اللغات لهجات : فلهجة باريس غير لهجة الفرنسية فيما عداها ويظهر الاختلاف بصورة أوضح فى المناطق الناطقة بالفرنسية . وكذلك الحال بالنسبة للانجليزية فى لندن وبقية أجزاء انجلترا ، والشعوب الناطقة بالانجليزية فى أنحاء المعمورة .

ومثل هذا حدث للأسبانية بعد انتشارها الكبير ، واتساع دائرتها .

وكذلك اللغة العربية التى كثرت وتشعبت لهجاتها ، لكن الفصحى احتفظت بخصائصها ، لأنها لغة القرآن الكريم والدين والأدب الراقى والدواوين .

وغالبا ما تصبح اللهجة الغالبة لغة الدواوين والعلم والأدب : فقد أصبحت لهجة باريس ، ولهجة لندن ، ولهجة مدريد ، والسكسونية فى المانيا ... لغات الآداب والتأليف بعد تفوقها على غيرها من اللهجات وانتشارها ، لغلبتها فى الصراع .

ولا يمكن فصل اللهجات المتجاورة عن بعضها فصلا تاما بحدود قاطعة ، لصعوبة ذلك ، وقد شبهها بعضهم بأمواج البحر التى تتتابع ولا يمكن عدها ولا حدها ، ولا الفصل بين بعضها فى تتابعها .

ومع تعدد اللهجات فى البيئة اللغوية الواحدة ، فان كل بقعة تصبغ لهجتها بلون خاص : كما يلاحظ فى البيئات الزراعية ، والصناعية ، والتجارية ، والحضارية ، والصحراوية ... كل على حدة لها لهجتها

الخاصة التى تميزها عن غيرها ، وتشيع فيها الفاظ تناسبها ، ولا تتداول فى غيرها .

وهذه اللهجات تبقى طويلا مادام افرادها منعزلين ومحافظين ، وتمتص ما ينقل اليها من لهجات اخرى بسبب زواج او تجارة ، او هجرة افراد قلائل ، وتذوب فى وسط هذه اللهجة التى انعزل وحافظ أهلها على السمت اللغوى للهجتهم .

ويحتفظ اصحاب هذه اللهجات بميزاتها ، حتى اذا عادوا الى بيئتهم الأصلية ، ظهرت من جديد ، وعلى سجية أهلها ، وان لوحظ بعض الانحراف الطفيف فى الأداء ، أو الصوتى لبعض المفردات نتيجة التأثر السابق ، وان حافظ المتكلم وتحفظ فى طريقة الأداء ، كالذى يهاجر من الصعيد الى القاهرة او الاسكندرية مثلا ، ثم يعود بعد مدة الى موطنه الأصلى .

وتتأثر اللهجات بالعوامل التى تؤثر فيها ، وتتدخل فى تشكيلها ، وهى كثيرة ، يمكن تلخيصها فى : العوامل السياسية ، وقيمتها التى تتمثل فى الرقى أو غيره . والعوامل الاجتماعية التى تحدد الأنماط السائدة فى المجتمع ، وترعى العادات والتقاليد والنظم وانماط الثقافة . وعوامل تاريخية وجغرافية ومناخية ، توضح ملامح البيئة ، وتحكى تاريخها ، وتظهر فروق الفصائل والأجناس الانسانية ، وما يميزون به عن غيرهم ، من فروق جسمية وعضوية وفروق فى أعضاء النطق ، وديناميكية العقل والذكاء ، والتجاوب النفسى والروحى ... وكل هذا بدوره سبب فى انشعاب اللغة أو اللهجة الى لهجات ولغات جديدة ، وان تراخى اثر بروزه ووضوح ملامحه على السطح زمنا ، لكن لابد منه بعد ان تتسع مسافة الخلف من جديد .

وقد تتزاحم اللهجات فى البلد الواحد ، وتتعايش فى سلام برغم اختلافها ، بسبب اختلاف طبقات الناس وفئاتهم : من موظفين وحكام وعمال وجنود وبحارة واصحاب حرف وصنائع . ومرجع ذلك الى اختلاف طرق التفكير ، والثقافة والمستوى المعيشى ، والبيئة الاجتماعية ، والعادات والتقاليد ، والأدوات التى تستخدم فى كل بيئة ، وما يلزم كل نتاج من المواد الخام ، وطرق الجلب والتصرف فيها .

وقد يشتد انحراف لهجة خاصة بجماعة او اصحاب حرفة ، فتغرب

فى هذا الانحراف حتى تصبح وقفا على أصحابها ، لا يفهمها غيرهم ، كلغة بعض المتصوفين ، والنحل الباطنة ، والرهبان ، وكلغة الوصفات الطبية البدائية ، وقد حكى الدكتور عبد الصبور نموذجا لها فى كتابه : « فى علم اللغة العام » كأنه طلسم سحرى ، أو رموز لحجر الفلاسفة واكسير الحياة ، كما روت كتب الخرافة فى دنيا السذج والبلهاء .

ونقل الدكتور على عبد الواحد فى كتابه ، طرفا مما جاء فى صحيفة المصرى فى ١٩٥٠/٢/٢٥ م عن لغة البحارة ، وما تمتاز به لهجتهم طبقا لمقتضيات حياتهم الاجتماعية وشئون البيئة ، جاء فيه : المريس — فى لغة البحارة — هو ريح الجنوب ، والقرية : هى خشبة الشراع الأكبر . والبومة : هى الخشبة التى يربط فيها القلع . وينصلح : أى يهلك . واللبش : هو الريح من الجنوب الشرقى . والقلفطة : هى رتق السفينة بالشحم وحبال الكتان ...

وقد استطاع رجال الشرطة أخيرا الى فك بعض رموز لهجة اللصوص وقطاع الطرق ، وطريدى العدالة .. وما يتعاورنه من الفاظ لا يفهمها غيرهم فى محيطهم ودائرتهم .

فتفرق اللهجات نتيجة لازمة لانتشار اللغة وكثرة المتكلمين بها ، وبخاصة اذا نأت بهم الديار ، نتيجة للعوامل السالفة . ومن هنا يظهر انه لا يمكن حمل الناس على لغة واحدة ، كما حاول بعضهم وأخفق ، لانها ستتفرق فى لهجات بعد حين طال او قصر ، ويبقى اختلاف الألسن كأختلاف الألوان آية من آيات المبدع العظيم : « **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم . ان فى ذلك لآيات للعالمين** »(الروم : ٢٢) .

* * *